مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد7 / العـــدد: 04 (2019)، ص 25 - 42

سيميائيّة العنوان ودلالتها الثّقافيّة في رواية بحر بلا نوارس لجيلالي خلاّص

أستاذة: فلّة شوط [1] أ. د. علي ملاحي [2]
[1] جامعة الجزائر 02- الجزائر.
[2] جامعة الجزائر 2 – الجزائر.

ملخّص البحث:

يتطلّع العمل الأدبيّ إلى خلق عدد من الفضاءات اللاّمتناهية الّتي تضفي عليه لوناً وشكلاً مغايراً في كلّ مرّة كما لو أنّه ولادة حديثة، وهذا الأسلوب في الإيقاع بالقارئ واستدراجه إلى مواطن الإقناع والتّحرر من أفكار الكاتب نفسه، تكتيك في محلّه لأنّ الفنّ الرّوائيّ في حاجة إلى التّنوع الثّقافيّ المقترن بالرّمز والدّلالة المنبثقة من التّحليل السّيميائيّ الّذي يتيح للباحث فرصاً هائلة للاكتشاف والتّمعن والتّدقيق. وعلى إثره وجب علينا فكّ شفرات الأحداث الرّوائيّة في علاقتها الحميمة بالعنوان ، وكذا سيميائيّته، والّذي يمثّل صورة شاملة ومتباينة، تحثّ الباحث على استكناه أسرار الحدث تلو الآخر ضمن بوتقة دلاليّة، الأمر الذّي يجعل من العنوان انعكاساً وتجلّياً للنّص الثّقافيّ.

اعتمدت دراستنا على تحليل عنوان **رواية بحر بلا نوارس سيميائيّاً ثقافيّاً للكاتب جيلالي خلاّص**، كما أنّها أيقنت بضرورة التّوظيف الدّلاليّ الإغرائيّ للعنوان في علاقته بِجملة العوامل الاجتماعية والثّقافيّة والتّاريخيّة، الّتي أعطت للظّاهرة الثّقافيّة المتمثّلة في النّص الأدبيّ حقّها من الدّراسة والتّحليل. لهذا أكّدنا الوقوف

على عتبة العنوان ومحاولة رصد جلّ التّوابع الرّمزيّة والإيحائيّة التّي قصدها خلاّص ونسعى نحن كمحلّلين الإلمام بها قياساً ببيئتها المتفرّعة عنها.

الكلمات المف ضِفّة الحلم تاحيّة: العنوان، المثقّف، السِّيميائيّة، الثّقافة الجزائريّة.

The abstract:

The literary work aspires to create a number of endless spaces that give it a different color and shape every time as if it is a recent birth, and this method of entrapping the reader and drawing him into places of persuasion and liberation from the writer's own ideas is a tactic in its place because fictional art needs cultural diversity coupled with the symbol and the connotation emanating from the semiotic analysis, which provides the researcher with opportunities for discovery, reflection and scrutiny. As a result, we have to decipher the fictional events in their intimate relationship with the title, as well as its semioticism, which represents a comprehensive and differentiated picture, urging the researcher to conceal the secrets of one event after another within a semantic melting pot, which makes the title a reflection and manifestation of the cultural text.

Our study relied on analyzing the title of the novel **A sea without gulls,** a cultural semiotic by the writer **Djilali Khallas**, as it realized the necessity of the semantic and seductive employment of the title in its relation to a set of social, cultural and historical factors that gave the cultural phenomenon represented in the literary text its right to study and analyze. That is why we emphasized standing on the threshold of the title and trying to monitor most of the symbolic and suggestive sequences intended by the salvation, and we, as analysts, strive to be familiar with them in relation to their sub-environment.

Key words: Title, the educated, semiotics, Algerian culture.

ينفتح العمل الأدبيّ على جملة من المكمِّلات الأسلوبيّة اللّغويّة والفنِّية الّتي تجعل من هذا العمل أو ذاك إنتاجاً أدبيّاً خالصاً ومميّزاً، لكي نقارب هذا التحصيل الأدبيّ شعراً كان أم نثراً تلزمنا أدوات وآليات تسعفنا لخوض غمار هذه النّصوص الإبداعيّة الشّفافة في تشكيلاتها وتناميها ورقيّها. وفي هذا المقام، وقف اختيارنا على آليات محدّدة، منها النّقد السِّيميائيّ والنّقد الثّقافيّ، حيث أيقنا بضرورة تفكيك عنوان رواية **بحر بلا نوارس** الّذي يحمل ثكنات عاطفيّة ودلالات عميقة لِما له من أهميّة وأسرار يدرك كنهها الرِّوائيّ وحتّى المتلقِّي في أغلب الحالات باعتبار هذا الأخير كاتب ثانٍ لهذا النّص. لكن لنا رغبة قوية في مقاربة سيميائيّة عنوان الرّواية من وجهة ثقافيّة، لأنّ حقيقة وضعه واختياره دون غيره من العناوين، يطرح أسئلة عدّة، بمقدور المتلقّي الإجابة عنها من خلال ثقافته وتطلّعاته الفكريّة.

كما أنّ المحلِّل السّيميائيّ يحسن استكناه كلّ العلامات والرّموز المنضوية من تحت الجماليّ من جمل اسميّة وجمل فعليّة بريئة، يذهب النّقد الثّقافيّ إلى الإلمام بثغراتها وتحليلها وتفكيكها، أي لماذا استعمل هذا وليس ذاك؟. وهذا لبّ الدّراسات الثّقافيّة الّتي تمنح كلّ نصّ شفرات دلاليّة، تُتيح للباحث إمكانية التّفاوض مع ما يعارضها ولا يتّفق وإيّاها حسبما تفرضه درجة الوعي وطبيعة التّفكير السّيميائيّ.

هنا بالذّات، تتشكّل الأسئلة المحوريّة لما يعرف باستجلاء الأنساق الثّقافيّة المضمرة الخفيّة من الظّاهرة المعلنة، حيث أصبحت هذه الطّريقة متوفّرة بكثرة وناجعة بالنّسبة للكتّاب الذّين يرون في كتاباتهم ونقاشاتهم بدءا وإنجازاً أدبيّاً خالصاً يمكن له أنّ يقوم بهموم ومشاكل أمّة بأكملها، وهذه هي ميزة كل روائيّ يسعى لإيجاد الحلول والمنافذ والسّبل المناسبة بدل التّحسّر على ما

مضى، قصد تشويش وبعثرة تفكير المتلقّي الّذي توليه السّيميائيّة مكانة محتسبة في التّحليل والتّدقيق التّحكيم. فمعنى المعنى يتستّر خلف الرّموز والإشارات الّتي تسهم فيها ثقافة المجتمع وبيئة الكاتب الّتي صقلت موهبته في السّرد، ودفعت به قدماً نحو هالة من الأحداث والمتغيّرات الثّقافيّة والسّياسيّة والإيديولوجيّة والإجتماعيّة.

لذا نحن بصدد دراسة العنوان سيميائيّاً ثقافيّاً، وهذا يتطلّب منّا التّوقف أوّلاً على عتبة العنوان لما تحمله من أهمّية بالغة في النّقد السّيميائيّ ربطاً بثقافة الرّوائيّ **جيلالي خلّاص** الّذي رأى بضرورة انبثاق **بحر بلا نوارس** دون سواه...لأنّه يحمل في جعبته أسراراً وخفايا وثغرات مدروسة بدقّة مُحكمة، أي أنّها لم توظّف اعتباطيّاً بل بصفة قصدية رامزة ودالة.

ان العنوان هو ذلك الابن المدلّل للنّص الرّوائيّ، الّذي أنجبه وساعد في صقل تأثيراته على مبدعه نفسه والآخر، كما أنّه جسر واصل بين المؤلّف والقارئ، حيث أنّه يؤثّر في هذا الآخير، فهو العتبة الّتي تحيط بالنّص ومن أهمّ العناصر الّتي يرتكز عليها النّص الموازي (paratexte نفسه المناص). ومن وظائفه السّامية: الوظيفة الإغرائيّة الّتي تلحق بالمتلقّي وتدمجه في لعبتها الرّوائيّة، وتدفع به إلى التّأمل والتّفكّر في أبسط التّمفصلات الفكريّة المنحدرة من سلالة الكاتب وذويه، الأمر الّذي يجعل لهذا العنوان رمزية وانطلاقة نوعيّة فريدة دون باقي العناوين، لأنّ الغاية من هذا التّوظيف التّأثير والإغراء والإيقاع بالطّرف الآخر ضمن لعبة سرديّة نزيهة قوامها السّلاسة اللّغويّة والتّوظيف الأدبيّ الّذي يطال النّص وكاتبه إلى متلقٍّ فاعل.

ان العنوان بهذا الشكل هو وجهة ثقافيّة قاصدة ومناوئة ، و" ليس يافطة إشهاريّة إغرائيّة تستهدف دغدغة عواطف المتلقيّ أو المستقبل المستهلك

فحسب، بل هو استدعاء القارئ إلى نار النّص، وإذابة عناقيد المعنى بين يديه ".[1] وهذا هو الغرض من حسن اختيار العنوان أو عدمه.

يكمن سرّ العنوان في أنّه طرح لسؤال الإشكال، عكس النّص الّذي يبحث عن إجابة السّؤال، ومنه نلحظ علاقة التّماثل والتّلاحم والتّناغم والتّكامل بين العنوان كبطاقة تعريف خاصة، تقدّم وتصف هويّة كلّ نصّ على حدة، وبين سياقه المتّكئ عليه، لأنّه منه وإليه أي أنّه منحاز عن الاعتباطيّة والتّعسّفيّة.

يقول **بسّام قطّوس** عن العنوان أنّه: " إشارة سيميائيّة تأسيسيّة، قد يدفعك إلى أنّ تعيد قراءة شيء كان مألوفا لديك بل هو جزء من ثقافتك، ولكنّه يغريك بإعادة قراءته لأنّه يفجّر فيك طاقات جديدة، وكأنّه مع العنوان يبدأ فعل القراءة، ومن ثمّ فعل التّأويل".[2] أي أنّنا نطالع ما في ذواتنا وما خزّنته ذاكرتنا الباطنيّة، ونسعى إلى استنزافه عبر الفعل الثّقافيّ الّذي نؤمن أنّه موجود بداخلنا بفعل القراءة أوّلاً، والتّأويل في مرحلة لاحقة عبر ما يسمّى بالتّأثير والتّأثّر المتبادل بين طرفي الإنتاج الأدبيّ.

فعلا، هذا ما نجده يتشكّل في رواية **بحر بلا نوارس** الّتي تجعل منه في حدّ ذاته اكتشافاً مبدئيّاً، يقبل احتمالية اللّجوء إليه أكثر من مرّة، بهدف تحليل تمفصلاته المتشابكة من الأقلّ توضيحاً إلى الأشدّ تعقيداً. نعلم أنّ العنوان آخر ما يكتب، ويكون له علاقة بآخر الرّواية لأنّ الأحداث في نهايتها، تبقى عالقة في ذهن الرّوائيّ، لكنّ هذه المسلّمة لا تنطبق على عنوان روايتنا، حيث نعتقد أنّه بلورة شاملة متّقدة لكلّ الرّواية، وهذا ما يسعى إليه الرّوائيّ.

[1]- جميل حمداوي، سيميوطيقا العنوان، ط1، مؤسسة المثقف العربي، أستراليا، 2015، ص51.

2- بسّام قطّوس، سيمياء العنوان، ط1، وزارة الثّقافة، الأردن، 2001، ص36.

إذن، فيما تمثّلت نظرتنا لهذا العنوان؟، وما هي الأفكار والمبادرات الّتي تخطر ببالنا كقّراء وباحثين قبل ربطنا العنوان بسياقه النّصيّ الوظيفيّ؟.

هنا - تماماً - تكتمل النّظرة لمّا نراعي تسلسل الأحداث وزمن كتابة الرّواية، وهذا يعني أنّه عنوان صائب، يمسّ الشّريحة الجزائريّة في الصّميم. نفهم من هذا أنّنا أمام مجابهة فعليّة لوقائع حقيقيّة، مثّلها أدب التّسعينيّات أو ما يعرف بالأدب الاستعجالي. لذا بمقدورنا أنّ نغرف من ثمرات عنوان **بحر بلا نوارس** دلالات ومعانٍ لا حصر لها.

ورد العنوان في شكل جملة اسميّة للتّقرير والإثبات قصد تأكيد مضمون النّص، وهذه طريقة الرّمزيّين، أمثال **جيلالي خلاّص** الّذين يجدون في الجملة الاسميّة قدرة هائلة على التّعبير اللّامتناهي والتّمثيل الدّلاليّ، أي أنّه يمنح المفردة الطّلاقة والحرّية في التّفكير، عكس الجملة الفعليّة المقيّدة أحياناً.

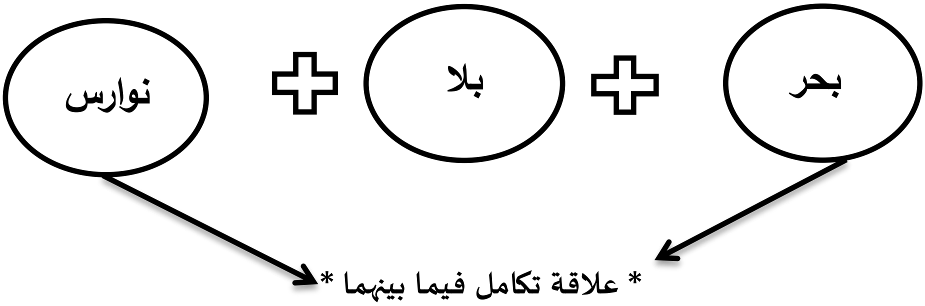

فالنّوارس جزء لا يتجزّأ من البحر، وكذلك هذا الأخير لا يتنصّل من الطّيور، مثل: النّوارس لأنّها جماله وشغفه بالحياة، نفهم أنّ الماء بعث للخيال والوجود والإنسانيّة، فكلّ شيء مخلوق من الماء لقوله تعالى: "وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ"[3]، وحركة المياه وشفافيتها دليل دامغ على أصالة الإنسان وتمييز الله

[3]- سورة الأنبياء، الآية 30.

تعالى للبشر، لكنّ بالفعل المعايشة والمعاشرة تغيّرت طينتهم وأصبحوا كالغرباء في تعاملاتهم. أمّا البحر فهو رمز لدينامية الحياة الثّابتة والمتغيّرة لأنّ سرّ تناميه وتفانيه هو أمل العيش من جديد، حيث يمكننا اعتباره امتداد للإعتداد بالنّفس والتّكبر والاستعلاء والمكابرة، وفي نفس الوقت نقطة الضّعف والهوان للكثير من النّاس.

للبحر صور رمزيّة بامتياز، حيث أنّ له " ارتباطاً كبيراً بالنّفوس ولهفة في القلوب إليه عظيمة، من هنا لا نتعجّب من أنّ يكون حاضراً في الإبداع ضمن لوحات إيحائيّة ووظيفته ترميزيّة خالصة، فمنذ نشوء الطّبيعة والإنسان على صراع معها، رافقته المياه بسرّها ولغزها وخيرها وشرّها وصفائها وغضبها ".[4] للبحر إقبال من الإنسان لأنّه راحته وعالمه اللّيلكيّ الّذي فيه تنتزع الأقنعة أي للماء صفاء ونقاء يجعل منه ميزة قويّة للإنسان، ومنه ارتبط البحر مباشرة بالإنسان الّذي يقيم علاقات شرعيّة مع الآخر تحت مسمّى الحياة، وهذا تأكيد لقوله تعالى: " وهو الّذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طريّاً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون".[5] ففضل الله علينا عظيم وجليّ لم يكتف بخلقنا فقط بل أمدّنا بخيرات غنيّة في جوف البحر، نأكل من لحوم أسماكه ونتزيّن بأحجاره ولآلئه المتنوّعة.

فدلالة البحر عميقة متجذّرة في الوجود الإنسانيّ، لأنّ لديه ارتباط وثيق بصفات إنسانيّة، وهو بهذا المعنى يتقمّص دور الكائن الحيّ الّذي يختزل وجدان الإنسان في أعماقه، يحمل بدواخله إيحاءات أصيلة منذ الأزل، يصادق عليها الوجود الأوّليّ للإنسانيّة. فالماء حياة الإنسان الواعدة الّتي تحييه وتميته، وهذا ما

[4]- مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنّا مينه (حكاية بحّار-الدّقل-المرفأ البعيد)، د.ط، منشورات الهيئة السّورية للكتاب، دمشق، 2011، ص119.

5- سورة النّحل، الآية 14.

ينعكس على البحر الّذي تظهر عظمته وشساعته في تخويف وترهيب النّفس البشريّة، لأنّه فضاء شاسع يحوي الحياة والموت معاً. مثلما يمنحك الطّمأنينة والرّاحة ويزيل عنك همومك ومتاعبك، ويبعث فيك أملاً بالاستقلاليّة الذّاتيّة والوجدانيّة، يستطيع أنّ يسلب منك أغلى النّاس، ويعرّيك من نفسك، بمعنى يسلبك روحك، وهذه حال الغرقى الباحثين عن المتعة والتّرفيه. وفي هذا الصّدد نستطيع إدراج ظاهرة الهجرة غير الشرعيّة المسمّاة بالحراقة في الجزائر وعدّة دوّل.

لقد امتدّت ظاهرة الهجرة غير الشّرعيّة سُبل الإنسان العاديّ إلى إنسان حالم وطامح بالتّغيير والبناء والتّأسيس لحياة مغايرة يمكن لها أنّ تجعله سعيدا أكثر ممّا كان عليه سابقاً. يمكننا أنّ نحكم على المهاجر غير الشّرعيّ بأنّه ذلك الشّخص الغاضب الّذي بوسعه تغيير مسار حياته إلى حياة أفضل، حيث تتّسم حياته بالفقر والحاجة والعوز، الأمر الجلل الّذي يدفعه إلى المغامرة بحياته في عرض البحر الغدّار بحثاً عن مكان مُتاحةً شروطه أكثر من الّذي ينتمي إليه في الأصل.

لقِيت هذه الهجرة غير الشّرعيّة إقبالاً مبالغاً فيه من الشّباب خاصّة الجزائريّين الّذين أصبح مبدؤهم السّفر والهجرة مهما كان الثّمن باهضاً، ولو كلّفهم ذلك التّضحية بحياتهم في وجهة مجهولة منفذها السّلامة أو الهلاك حسب قدر كلّ شخص وتوفيق اللّه تعالى لهم.

يتبيّن لنا أنّ للبحر تاريخاً أزليّاً قيمته بقيمة الإنسان، وأوجاعاً كثيرة ابتلعها منذ القدم بدءاً بقصة سيٍّدنا موسى عليه السّلام والطّاغية فرعون وغضب اللّه عليه وقومه، وكيف أنجى سبحانه تعالى موسى عليه السّلام ومن معه وشقّ لهم البحر بعظمته وقدرته الفجّة. وهذا خير دليل على بسالة البحر وعراقته، ولا يسعنا تناسي قصة سيّدنا نوح عليه السّلام وسفينته الّتي أنجاها الرّب وأغرق

سواها، فأحيانا يكون البحر منقذاً للآخرين من هلاك يعتريهم باليابسة وأحيانا أخرى يكون دمارا لهم لأنّهم يسعون خلف حياة غير الّتي تركوها، ويمكن للبحر أنّ يوصلهم إلى البّر الهادئ.. غير أنّه يغدر بهم ويُرديهم موتى غرقى مفجوعين بصباح مظلم وغدٍ مُلغى ومُؤجّلٍ..

يمكن لهاته العبارة: (يوم لك ويوم عليك) أنّ تنطبق على صورة البحر أمام هذا الشّاب الفقير المحتاج الّذي طفح الكيل بحياة الحرمان والضّياع والشّعور بالنّقص، وبوّده الهناء والعيش بِرغد في غير بلده الأمّ الّتي لم يلق منها الإقبال والاستحسان الّذي يرغب به كغيره من المواطنين. يولد حرّاً طليقاً لا تُكبِّله أيّة قيود وبِخُلده عدّة أحلام ورغبات يسمو تحقيقها، لكنّه يُردى قتيلاً أمام مجتمع ودولة انقلبت ضدّه وفرضت عليه قسيمة جبائيّة، ينبغي تسديدها وفق مبدأ الانتحار البطئ.

فكلّ شاب لديه أحلامه وطموحاته الّتي يرغب بتحقيقها لكنّ الواقع الحياتيّ لا يشتهي ذلك.. وعليه نجده يبحث عن هذه الهجرة غير الشّرعيّة لأنّه يعيش في بلده العوز والحرمان وقلّة الحاجة الّتي ضاق بها ذرعاً. يُقبِل على البحر وفي نفسه فرحة وخوف غامرين، نجده يراهن بحياته ويبيع أغلى ما يملك، ويقترض مبالغ مالية حتّى يسدّد تذكرة موته، ويا حبّذا لو يعبر هذه المخاطر بسلامة ويصل حدود الضّفة المقبلة ولو كان مواطناً غير شرعيّ، المهمّ أنّه ظفر بحياته متعافياً بأقلّ الأضرار...لكنّ هذه العارضة موجودة في أغلب الأحيان. .يصطدم بكوارث غير طبيعيّة ضمن ما هو طبيعيّ.. يمكن للقارب الّذي استقلّه هذا الشّاب أنّ يكون هشّاً مقاوماً للرّياح والعواصف والقلوب الباكية.. فيتلقّف أنفاسه الآخيرة ويلقي به في الشّاطئ بِفعل تضارب الأمواج، وهذا أشدّ رحمة من البحر وكأنّه هدية منه، فيصبح جثّة هامدة دون روح أفضل من ضياع جسده

وروحه معاً بالقاع.. حتّى يغدو طعاماً للأسماك ومتنفّساً لهم بعد أنّ كانت هي مصدر عيش ورزق لهذا الإنسان البسيط صيّاداً كان أم هاويا، يشغل وقته ويخلق متّسعاً من المتعة والفرجة.

كما يمكن للبحر أنّ يعزّز في قلوب البشر الأمل ويضاعفه وينمّيه، فكلّ مهاجر يفكّر بعبوره وصولاً إلى حدود بلد آخر وفي نفسه تفاؤلاً جامحاً وخوفاً عظيماً، لكنّ طمعاً منه بمستقبل أفضل وأيسر حال. فظاهرة الهجرة غير الشّرعيّة ليست ظاهرة عابرة ومُحزنة فقط بل لها العديد من الدّلالات والأسباب والنّتائج المترتّبة عنها هي خير دليل على فجائعها ووقعها على الأهالي والمجتمع والأمّة ككلّ، فبِوسعها أنّ تُدمّر أُسراً وبيوتاً، وأنّ تشكّل فجوات غائرة في الأنفس بفعل البعد والتّنافر واللّاإحتكاك. كما يمكن أنّ تفتح آفاقاً أمام المهاجر الّذي يصل حيّاً وينجو من عثرات الزّمن أي يمكننا عدّ البحر الوسيلة المُثلى التّي يقصدها المهموم لينفّس بها عن مكبوتاته السّحيقة، لكنّ هذه الحقيقة صعبة ولا تتحقّق دوماً.. دلالة البحر دفينة تثير في نفس المهاجر المسافر عبر أمواجها مشاعر متناقضة، يمكن أنّ توصله إلى برّ الأمان أو تغدر به، فأمواجه متضاربة ومتناقضة تزرع الرّعب في قلب الضّعيف والقويّ بضراوتها.. لامتداد البحر طعم خاصّ وهو الملوحة، مثلما تعرف أنّ مياهه مالحة وهذه خاصية غير كلّ المياه. فالبحر نقيض اليابسة الّتي تكون ملجأ الجميع، في أغلب الأحيان، لكنّ هذا لا ينفي أنّه مهرب الحالمين والطّامحين للبعيد، ومنه حمل عدّة دلالات وتأويلات. للبحر متاهات كثيرة، لأنّه إيهام بالواقع خاصة في العمل الرّوائيّ الّذي يوظّفه احتكاكاً بطبيعته المتحوّلة، فهو" مكان الولادة والتّحوّلات والبعث، إنّه رمز الخصب، ويدّل على واقع الارتياب والشّكّ والحيرة الّذي يمكن أنّ يؤوّل شرّاً أو خيراً، من هنا كان البحر صورة للحياة وصورة

للواقع".[6] كما أنّه طريق سهل للغزاة خاصة في القديم، أغلب المستعمرات اتّخذته منفذاً لها، ومعبرها الأساسيّ لغزو أيّ بلد. لطالما مثّل البحر الطّريقة النّاجعة لاقتصاد أيّ بلد حيث يعتبر وسيلة للتّبادلات التّجاريّة الّتي تسهّل نقل البضائع والسّلع مهما كانت وجهتها بعيدة، بالإضافة إلى ثرواته الغنيّة الّتي يتنعّم بها الإنسان من أسماك ولآلئ على اختلافهما وطعام وماء، والموّاد الخام كالبترول، ومن المعادن كالفضّة والذّهب والأملاح، وتوليد الطّاقة أي الكهرباء من خلال ظاهرتي المدّ والجزر والرّياح...وكذلك الأعشاب البحريّة والحشائش والطّحالب المفيدة لعلاج الكثير من الأمراض..

يعتمد البحر على الحركة والمشي والقفز والسّير والصّراع والتّفاعل والدّينامية المستمّرة، فهدير أمواجه تعبير عن ديمومة الحياة وسريانها، الأمر الّذي لا يجعله مستقرّاً وثابتاً. كما أنّه استنجاد للفقراء يقصدونه بحثاً عن خيرات وأطعمة تسدّ جوعهم حيث يرون فيه مخرجاً من حالات البؤس والشّقاء والجوع إلى حالات السّعادة والرّضا والأمن الغذائيّ.

أمّا النّوارس فهي من فصيلة الطّيور الصّاخبة الّتي تطلق صيحات صاخبة عالية، والنّورس صيّاد ذكيّ ولديه قدرة هائلة على التّعلّم، حيث يربّت بقدميه على التّربة حتّى يوهم الدّيدان القابعة تحتها بنزول المطر، وبعدها يأكلها بسهولة وميزة المكر هذه خاصية، كما أنّ حركاته وطريقته في التّحليق لها بعداً تواصليّاً، ممكن يسعى لإيصال رسالة معيّنة من نورس لآخر أو للإنسان نفسه. لهذا اعتبره الأدباء والشّعراء قبلا رمزاً للشّوق والحنين والدّفء والغربة والأحلام، لأنّه يبقى باحثاً عن الدّفء من مكان لآخر حسب تغيّر الجوّ والفصول من شتاء

5- عبد الحقّ ميفراني، الأدب والبحر.. المجرّد والمحسوس، ألف، http://akftoday.info/article.ph، 2019/03/05، 17:29.

لربيع...ممّا يعني أنّ تحسّن الطّقس وسوئه من العوامل الأساسيّة لتكاثر ونموّ النّوارس، وهذه خاصية ضروريّة للحفاظ عليهم (يعيشون حتّى سنّ 49 سنة، شبيهين بالإنسان)، وإذا تحدّثنا عن غذائه، نجده يقتات من الفضلات ويأكل بقايا الأسماك المخلّفة من مراكب الصّيد، ويشرب الماء العذب والمالح معاً، حيث لديه مادّة تفرز هذه الملوحة عبر أنفه، كما يفضّل بناء بيوته على الصّخور بحثاً عن الأمان والاستقرار والطّمأنينة وراحة البال في زمن زال فيه الأمن، وهذا هو حال الإنسان، ومنه نفهم أنّ النّورس في إيحائه إنسان حيث يستعين مرّات عدّة بالمكر والحيلة لكي يحقّق مثاربه وغاياته، وقد يقصد طرقاً غير شرعيّة المهمّ فيها أنّه يصل ما يريد، وهذا يبرّر قول ميكيافيلي: " الغاية تبرّر الوسيلة ".

من خلال تقديمنا الأوّليّ للفظتي البحر والنّورس، نفهم أموراً عدّة، منها أنّ النّورس لا يستطيع البقاء مطوّلاً بعيداً عن البحر لأنّه ولاؤه الوحيد، والبحر ماء مالح يحوي مختلف الأسماك، الّتي هي غذاؤه، وعليه فالعلاقة بينهما وطيدة، فالبحر بشفافيته ولمعانه وزرقته المتطابقة مع لون السّماء، يُضفِي لعين المتأمّل النّاظر سحراً وراحة ورومانسيّة وصدقاً وصفاءً ونقاءً، وهذه الحقيقة تصادق عليها النّوارس الّتي تشاطره نفس الصّفاء والنّقاء ببياضها الغالب المُضفي للتّسامح والمغفرة والسّلام مثلما نعرف.

يمثّل البحر للطبّقة المثقّفة الواعية نوعاً آخر من الدّراما، من السّلاسة اللّغويّة في السّرد، لأنّه يُمكّن الرّوائيّ المثقف أمثال **خلاّص** من كسر هذا النّوع من التّراجيديا المأساويّة في طرح الأفكار وتبنّيها واحتضانها، وهذا ما يجعل لُتواجد النّوارس في عرض البحر قيمة إنسانيّة عليا وحقيقة وجوديّة واستحضاراً لمكنونات الطّبيعة. فقد سبق وأشرنا إلى عمر النّوارس الّذي يتجاوز 49 سنة، فحاله كحال الإنسان يعمّر طويلا على الأرض وهذا ربّما ما منحه بعضا من ميزاته وخصائصه

وصفاته، لأنه يقاربه كثيرا في كيفية عيشه وتأقلمه مع الفصول الأربعة وبحثه عن الطّعام وكيفية التّعود على هذا النّظام الرّبانيّ الّذي خصّنا به الله عزّ وجلّ دون سوانا.. نقول أنّ النّورس شبيه بالإنسان في عاداته وعيشه وطرق تخزينه للطّعام كي يضمن الزّاد لصغاره وعائلته، أي أنّه يتّصف بميزة الخوف والارتياب والتّأكيد على ضرورة البقاء صامدين والبحث عن الحياة الآمنة الّتي نثابر لأجل بلوغها.

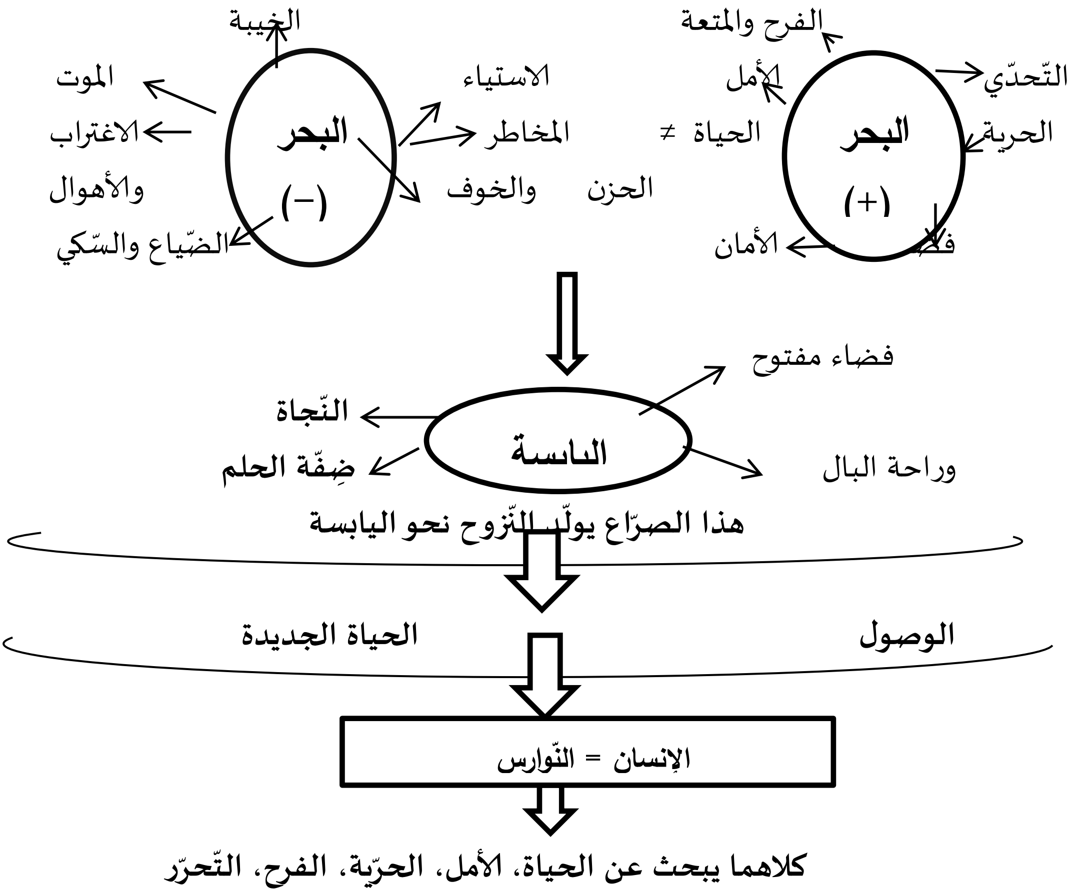

النّوارس= الغربة، الحنين، الشّوق، الدّفء، الحرّية، الأحلام، القوّة، السّلام، الصّفاء، الشّفافيّة، الصّداقة، الاطمئنان، البراءة..

يبحث الإنسان عن ملاذه **البحر**، وهو يعرف ويُوقِن خطورته ووداعته في نفس الوقت، الأمر الّذي يجعل رسالته أسمى وأقوى، مثله مثل النّوارس تخلق لنفسها مسكناً من صخر، تأوي إليه لكنّها لا تنأى عن البحر مهما كان لأنّه زادها، أي أنّها والإنسان واحد، تغرف من كلا المنبعين. وكلّ هذه الرّموز وتقاربها فيما بينها، يجعل كلّ من البحر والإنسان والنّوارس علاقة تكامل، لأنّ ديمومة الحياة تفرض هذا االصّراع المتشابك.

فثقافة الرّوائيّ هي الّتي تحكم في تصنيفه للشّخصيات وإحكامه للأحداث وتلاعبه بالأمكنة والأزمنة، وهذا ناجم عن شساعة اطّلاعه، لأنّ توظيف الحقيقة ضمن المتخيّل لعبة روائيّة مضبوطة، فالبحر ليس مجرّد لفظة سهلة التّركيب والتّوظيف بل مفردة ذات معاني متطاولة ومتنامية، لا يفقه كنهها إلاّ الرّوائيّ العليم بمسار الرّواية ومداراتها، الأمر نفسه مع لفظة النّوارس الّتي توظّف لغاية فنّية بحتة، بل تتجاوزها بكثير، لا ننكر أنّها تعطي نغمة موسيقيّة للعنوان خاصّة بتواجد حرف الجرّ وأداة النّفي (بلا) في حُلّة **بحر بلا نوارس**.

بعد هذه الاستفاضة المفاهيميّة التّحليليّة لعنوان الرّواية، وجب علينا مقاربته من وجهة نظر الرّوائيّ **خلاّص** الّذي يرى غير ما ذهبنا إليه، يرمز الرّوائيّ في ثنايا رواية **بحر بلا نوارس** إلى الأوضاع الثّقافيّة والإجتماعيّة والسّياسيّة الّتي آلت لها الجزائر طيلة فترة الاستعمار، وما تلاها في إرهاب العشرية السّوداء الّتي ألمّت بالجزائريّين في الصّميم، وسفكت الدّماء بسلب أرواح الأبرياء على تنوّعهم من صغار وكبار أرامل وثكالى وأمّهات.. لم تبقي على الأخضر واليابس مثلما يقال، وألمّت بالجميع وضحّت بهم.

إذن، فالبحر مدعاة للجزائر(البلد الأمّ الحنونة) الّتي عانت الويلات واضطهدت من قبل الاستعمار الفرنسي في بادئ الأمر ثمّ حاولت لمّ شملها بعد الاستقلال، إلاّ أنّ المناهضة السّياسيّة قمعت الشّعب الجزائريّ وأدخلتهم في متاهة مغايرة تماما، وهي فترة الإرهاب الّتي ألحقت الضّرر بالجميع دون استثناء بحُجّة حبّ الله والوطن والإخلاص في سبيله، لكنّ هذه الحجج فارغة واهمة لا تطال الرّوائيّ والواعين والمثقّفين مثله.

أمّا لفظة **نوارس** فهي رمز الحضارة الباسقة والمجيدة الّتي عرفتها الجزائر فيما سبق، حيث كانت **النّوارس** زينة الأسطول الجزائريّ، تبقى مرافقة إيّاه، مشكّلة لوحات فنّية رائعة، وكذلك زقزقة أصواتها تطرب الجالسين على الشّواطئ والمرافقين لِسُفُنهم وبواخرهم. كما أنّها ترافقهم في رحلاتهم باحثة عمّا يسدّ جوعها، وهكذا نستنتج أنّ وجود **النّوارس بالبحر** له دلالات قويّة، لأنّ الجزائر عرفت مرحلة ساد فيها الأمل والأمن والاستقرار، وهذا ما منح **النّوارس** حرية التّجوّل والاستمتاع بمياه البحر، أي أنّ **بحر بلا نوارس** طاقم رمزي لكتلة من (الأحداث السّياسيّة والتّاريخيّة) شاءت أنّ يجعل الرّوائيّ من البحر جزائر الإخلاص والسّيادة الوطنيّة والهويّة والانتماء الجزائريّ، هذا البلد الّذي يمثّل البحر في حدّ ذاته بشساعته وتبحّره وتفتّحه ومدّه وجزره وخيراته وثرواته وثوراته الغاضبة ضدّ كلّ عدوان بشريّ. والنّوارس الّتي مثّلت الشّعب المجيد الأصيل من الجزائريّين المنتظرين للفرحة والسّعادة أنّ تعمّ عليهم، آملين بغدٍ جديد شِعاره الأمل والحرية والرّغبة بالتّجديد والتّغيير.

بحر بلا نوارس = جزائر بلا: مواطنين، جزائريّين أحرار، نخبة مثقّفة (سمّمتها الفطائر السّامة)، أمل وحرية وفرح ونماء ودفء، يعني [جزائر للضّياع والهلاك والاندثار والفراغ]

الموضوع موت النّوارس ⟵ (ضياع سلطة الشّعب الجزائريّ)

(المشار إليه)

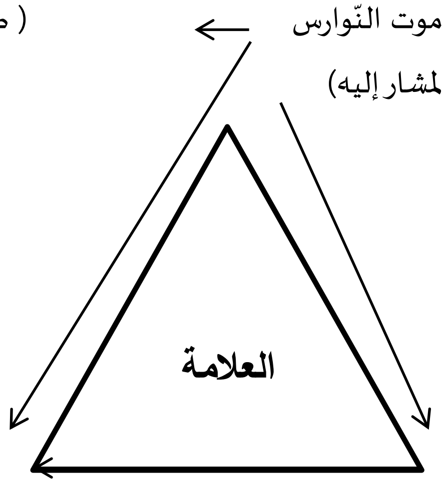

(الممثل/المدلول/المفسّرة)   البحر (الدّال/المؤوّل)

(بشاعة الاستعمار وقمع السّلطة والإرهاب)

العلامة: البحر/**المعنى**: مخاطر الفطائر السّامة وطغيانها.

معنى المعنى: الوضع المأساوي الّذي ألمّ بموت النّوارس وفقدان الأمل.

يظهر جليّاً أنّ أمنية الرّوائيّ هادفة إلى عودة لِما كانت عليه الجزائر سابقاً قبل الاحتلال الفرنسي وحقبة التّسعينيّات، لأنّه عبّر عن مشاعره وأهدافه برسمه لجزائر شامخة طامحة ممتدّة شفافة متموّجة حالمة كالبحر، وما يزيدها جمالاً ورونقاً فضاء النّوارس المقبل من كلّ وجهة ليزيدها فرحةً وتحرّراً وحريةً ونماءً وأملاً بغدٍ جديد ومستقبل مشرق وواعد، لأنّه حان للجزائر انّ تتحرّر وتنزع عنها قلاع الجراح والوحدة والفقدان، مثل أيّ عروس تأجّل عرسها باستمرار، واليوم عقدت القران وزُفّت العروس، وعروسنا هي الجزائر بحضور المدعوِّين، فتكتمل صورة البحر بتواجد **النّوارس**، ولا يسعنا سوى الاعتراف بأسلوب الرّوائيّ **جيلالي خلاّص** الرّاقي البسيط في تراكيبه والمعقّد في مقاصده وإيحاءاته، وهذا بارز أوّل شيء في عنوان الرّواية **بحر بلا نوارس** مهد الثّقافة الجزائريّة.

وأخيراً، نعترف أنّ لكلّ عمل أدبيّ سمات تميّزه، وتعترف به، سواءً إنّ كانت سترفع من قيمته أو تحطّ من شأنه، وهذه المكمّلات الرّوائيّة أساسيّة لأنّها من ستخلق طابعاً نوعيّاً للقالب السّرديّ وتمنحه الجدّة والانسيابية ، ومنها العنوان المتناول بين أيدينا والّذي نشهده بوحدته وتفرّده وكذا قصديته التداولية المراوغة كثيراً ، ما يجعلنا نؤمن بأهميّته الّتي تساهم في تحديد معاني الرّواية واكتمال اللّوحة الفنّية اللّغويّة والأدبيّة.

مصادر ومراجع الدراسة :

- القرآن الكريم برواية ورش.

أوّلاً: المصادر:

جيلالي خلاّص، بحر بلا نوارس، ط1، منشورات دحلب، الجزائر، 1998.

ثانيّاً: المراجع:

1- **الكتب باللّغة العربيّة:**

- بسّام قطّوس، سيمياء العنوان، ط1، وزارة الثّقافة، الأردن، 2001.
- جميل حمداوي، سيميوطيقا العنوان، ط1، مؤسّسة المثقّف العربي، أستراليا، 2015.
- مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة (حكاية بحار-الدّقل- المرفأ البعيد)، د.ط، منشورات الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، دمشق، 2011.

2- **مواقع الانترنت:**

- عبد الحقّ ميفراني، الأدب والبحر.. المجرّد والمحسوس، ألف، www.akftoday.info/article.ph